المباحث العقدية المتعلقة بحديث بدء الوحي

فضيلة الشيخ الدكتور أبي بكر بن سالم الشهال❖

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد ،

فهذه دراسة لأهم الجوانب العقدية المتعلقة بحديث بدء الوحي، سائلاً الله تعالى فيها التوفيق والسداد ، وقد قسمت هذه الدراسة إلى تمهيد وستة مباحث أساسية ، وهي كالتالي:

التمهيد في حاجة الخلق للرسالة:

المبحث الأول: في تعبد النبي ﷺ قبل البعثة .

المبحث الثاني: الوحي وما يتعلق به .

المبحث الثالث: النبوات .

المبحث الرابع: الإيمان بالكتب المنزلة .

المبحث الخامس: الإيمان بالملائكة .

المبحث السادس: فضائل ورقة وخديجة رضي الله عنها .

وأبدأ أولاً بذكر الحديث موضوع الكلام:

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حِرَاء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حِراء فجاءه الملك فقال: اقرأ ، قال: ((ما أنا بقارئ)) قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني، فقال: اقرأ ، قلت: ((ما أنا بقارئ)) فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني

❖ محاضر بالمعاهد الشرعية في شمال لبنان، حائز على الإجازة العالية من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية الحديث ونال درجتي الماجستير والدكتوراه من نفس الجامعة قسم العقيدة، وكانت أطروحته بعنوان تخريج الأحاديث والآثار المتعلقة بالعقيدة من كتاب التمهيد لابن عبد البر .

الجهد ثم أرسلني، فقال : اقرأ ، فقلت: ((ما أنا بقارئ))، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربك الأكرم ﴾ [العلق: ١-٣] .

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: ((زملوني زملوني)) فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: ((لقد خشيت على نفسي)) . فقالت خديجةُ: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصر في الجاهليةِ، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك! فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ ((أو مُخْرِجيَّ هم؟)) . قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومُك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي[1].

وهذا أوان الشروع في دراسة هذه المباحث المشار إليها:

التمهيد: وهو في حاجة المكلفين إلى إرسال رسل وإنزال كتب، وحسبنا أن نبرز هذه الحاجة في هذه الأمور:

الأول: في حاجته إلى الرسالة لعبادة ربه .

والثاني: في حاجته لها للتعامل مع الناس .

والثالث: بيان جزاء العباد في الآخرة .

أما الأمر الأول، فلا شك ولا ريب أن أي إنسان في هذه الدنيا مفطور على عبادة ربه والتقرب إليه، فهو إن وصل إلى توحيد الله تعالى ومعرفته بعقله أو بفطرته، وهذا لا يكون إلا لفئة قليلة من الناس، كما حصل مع المتحنفين أو المتنصرين، قبيل البعثة، حيث دفعتهم فطرتهم وعقولهم إلى نبذ ما عليه أهل الجاهلية، فطافوا في البلاد فمنهم من

---

[1] رواه البخاري (٣) في كتاب بدء الوحي، (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ)، ومسلم (١٦٠) كتاب الإيمان (باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ) .

تهود ومنهم من تنصر ومنهم من بقي حنيفياً، وذلك لحاجتهم إلى معرفة كيفية العبادة، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ، كما هو مدون في كتب السير.

هذا وإن وصل أحدهم إلى التوحيد بفطرته لكنه لا يستطيع أن يصل إلى كيفية التعبد وفروع الشريعة بها، فلا بد إذن من إرسال رسل تعلم الناس كيفية العبادة الموصلة لله تعالى.

والأمر الثاني، وهو أن الناس بحاجة إلى أن يعامل بعضهم بعضاً، فلا بد من خلافات وخصومات كما هو مشاهد، حيث يرى كل إنسان ما له عدلاً، وما عليه جوراً وظلماً[1]، فحاجة الإنسان إلى الأنبياء والرسل أشد من الحاجة إلى الطعام والشراب والهواء، لأن فقد هذه الأمور تفقد الحياة، وأما عدم الإيمان بالنبوة ففيه خسران الآخرة وهو الأمر الثالث، حيث إن الناس بحاجة إلى من يعرف مآلهم ويرغبهم في السير في الطاعة الموصلة للسعادة الأبدية، ويرهبهم ويخوفهم من النكوص والاستنكاف عن طريق الهدى لئلا يقعوا في مهاوي الردى.

ولابن تيمية رحمه الله كلام طويل جميل في حاجة الخلق للرسالة، أختصر منه بعض فقراته، قال: (والرسالة ضرورية للعباد لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة: روح العالم، ونوره، وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، وينابيه من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهذا وصف المؤمن، كان ميتاً في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

وسمَّى الله تعالى رسالته روحاً والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة قال الله تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا﴾[الشورى:٥٢] فذكر هنا الأصلين وهما الروح والنور. فالروح: الحياة، والنور: النور... ثم قال رحمه الله: (فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه) .

---

[1] انظر: دلائل التوحيد للعلامة محمد جمال الدين القاسمي (١٤٠) .

فالأصل الأول: يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم .

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة وبيان ما يحبه الله وما يكرهه .

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب .

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلقِ والأمرِ، والسعادةُ والفلاحُ موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يُداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب، فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه أبداً، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبداً، فلا فلاح إلا باتباع الرسول)[1].

المبحث الأول: في تعبد النبي ﷺ قبل البعثة .

وقع الخلاف في عبادة النبي ﷺ قبل بعثته هل كان متعبداً بشريعة من قبله أم لا؟

قال القرطبي في المفهم[2]: (واختلف في عبادة النبي ﷺ قبل مبعثه، هل كانت لأنه كان متعبداً بشريعة مَن قبله؟ أم كانت لما جعل الله في نفسه، وشرح به صدره من نور المعرفة؟ ومن بغضه لما كان عليه قومه من عبادة الأوثان، وسوء السيرة، وقبح الأفعال، فكان يفرّ منهم بغضاً، ويخلو بمعروفه أُنساً ؟

ثم الذين قالوا: إنه كان متعبداً بشريعة، فمنهم من نسبه إلى إبراهيم عليه السلام، ومنهم من نسبه إلى موسى عليه السلام، ومنهم من نسبه إلى عيسى عليه السلام، وكل هذه أقوال متعارضة، لا دليل قاطع على صحة شيء منها، والأصح القول الأول، لأنه لو كان متعبداً بشيء من تلك الشرائع لعُلم انتماؤه لتلك الشريعة، ومحافظته على أحكامها، وأصولها وفروعها، ولو عُلم شيء من ذلك لنُقلَ، إذ العادة تقتضي ذلك، لأنه ﷺ ممن تتوفر الدواعي على نقل أحواله، وتتبع أموره، ولمّا لم يكن شيء من ذلك، عُلم صحة القول الأول) .

---

[1] مجموع الفتاوى (١٩/٩٣-٩٧) .

[2] المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (١/٣٧٥) .

وتعرض لهذه المسألة تلميذه (القرطبي المفسر) في تفسيره فذكر نحواً مما ذكر صاحب المفهم وزاد عليه فقال[١]: (وتكلم العلماء في نبينا ﷺ هل كان متعبداً بدين قبل الوحي أم لا ؟ فمنهم من منع ذلك مطلقاً وأحاله عقلاً، قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عرف تابعاً، وبنوا هذا على التحسين والتقبيح .

وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه الصلاة والسلام وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك، إذ لم يحل الوجهين منهما العقل ولا استبان عندها في أحدهما طريق النقل وهذا مذهب أبي المعالي .

وقالت فرقة ثالثة: إنه كان متعبداً بشرع من قبله وعاملاً به ثم اختلف هؤلاء في التعيين: فذهبت طائفة إلى أنه كان على دين عيسى عليه السلام فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها فلا يجوز أن يكون النبي ﷺ على دين منسوخ وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم عليه السلام لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء وذهبت طائفة إلى أنه كان على دين موسى عليه السلام لأنه أقدم الأديان .

وذهبت المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دين ولكن عين الدين غير معلومة عندنا .

وقد أبطل هذه الأقوال كلها أئمتنا إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلالة قاطعة وإن كان العقل يجوز ذلك كله والذي يقطع به أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن منسوباً إلى واحد من الأنبياء نسبة تقتضي أن يكون واحداً من أمته، ومخاطباً بكل شريعته، بل شريعته مستقلة بنفسها مفتتحة من عند الله الحاكم جل وعز، وأنه ﷺ كان مؤمناً بالله عز وجل . ولا سجد لصنم ولا أشرك بالله ولا زنى ولا شرب الخمر .... وكذلك المعروف من سيرته عليه الصلاة والسلام وتوفيق الله إياه له أنه كان قبل نبوته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج وكان يقف هو بعرفة لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام، فإن قيل: فقد قال الله تعالى : ﴿ قل بل ملة إبراهيم ﴾ [البقرة : ١٣٥] وقال: ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم ﴾ [النحل: ١٢٣] وقال: ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ [الشورى:١٣] وهذا يقتضي أن يكون متعبداً بشرع، فالجواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدين) .

هذا وقد اشتهر بين المفسرين وأهل السير أنه ﷺ كان على دين إبراهيم عليه السلام، قال ابن الجوزي رحمه الله[٢]: (وقد اشتهر في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام أنه

---

[١] تفسير القرطبي (٤٩/١٦)

[٢] زاد المسير (٢٩٨/٧- ٢٩٩) .

كان قبل النبوة يوحِّد الله، ويبغض اللات والعزى ويحج ويعتمر ويتبع شريعة إبراهيم عليه السلام)، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه فهو قول سوء . أليس كان لا يأكل ما ذبح على النصب ؟

وقال ابن قتيبة: قد جاء في الحديث أنه كان على دين قومه أربعين سنة ومعناه أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين إسماعيل، من ذلك: حج البيت والختان وإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثاً، وأن للزوج الرجعة في الواحدة والاثنتين ودية النفس مائة من الإبل والغسل من الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من الإيمان بالله والعمل بشرائعهم في الختان والغسل والحج وكان لا يقرب الأوثان ويعيبها، وكان لا يعرف شرائع الله التي شرعها لعباده على لسانه فذلك قوله (ما كنت تدري ما الكتاب) يعني القرآن (ولا الإيمان) يعني شرائع الإيمان ولم يرد الإيمان الذي هو الإقرار بالله لأن آباءه الذين ماتوا على الشرك كانوا يؤمنون بالله ويحجون له البيت مع شركهم . اهـ .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في أثناء شرحه للحديث: أن (التحنث) هو التحنف، فقال: (فيتحنث) هي بمعنى يتحنّف، أي يتبع الحنيفية وهي دين إبراهيم عليه السلام، والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم، وقد وقع في رواية ابن هشام في السيرة (يتحنف) بالفاء[1]. ولم يتعرض لبقية الأقوال في هذه المسألة .

وقد نقل الكرماني عن ابن الأعرابي أنه سئل عن قوله (يتحنّث) فقال: لا أعرفه، وسألت أبا عمرو الشيباني فقال: لا أعرف يتحنث إنما هو يتحنف من الحنيفية[2] . اهـ .

ومما يؤيد القول بأنه كان على بقايا دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ما رواه ابن إسحاق[3] بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير ﷺ أنه سأل عبيد بن عمير بن قتادة الليثي[4]، قال: حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما تبدى به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاءه جبرائيل؟ فقال عبيد: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تتحنث به قريش في الجاهلية ـ والتحنث التبرز ـ فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك

---

[1] فتح الباري (١/٣١) .

[2] انظر شرح البخاري للكرماني (١/٣٢) .

[3] رواه الطبري في تاريخه (١/٥٣٢) وابن عساكر في تاريخه (٦٣/١٢) من طريق ابن إسحاق، وعزاه لابن إسحاق الذهبي في تاريخ الإسلام (١/٢٩) وابن حجر في الفتح (١٠/٤٢٥) وعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في مختصر السيرة (٩٨ـ ٩٩)، وهو في سيرة ابن هشام مختصراً (٢/٦٨) .

[4] انظر: لسان العرب (١٥/٣٧٩) والقاموس المحيط (١٧٢٩) وشرح الكرماني (١/١٤) وفتح الباري (١/١٤) .

الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً، أو ما شاء الله من ذلك..) اهـ .

فهذا يدل على أن العرب كانوا ورثوا بعض العبادات من لدن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومنها الطواف بالكعبة والحج والخلوة للعبادة ...

فعلى ذلك ليس هناك ما يمنع أن يكون النبي ﷺ قد تعبد الله ببعض الشعائر على دين إبراهيم عليه السلام وهي التي بقيت عند العرب إلى وقته، مع الأخذ بالتوحيد الذي هو دين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

المبحث الثاني: الوحي وما يتعلق به . وفيه مسائل:

المسألة الأولى : تعريف الوحي لغة واصطلاحاً:

أ) الوَحْيُ لغة: الإعلام في خفاء، والإشارةُ والإيماء والكِتابَةُ والمَكْتُوبُ والرِسالَةُ والإلْهامُ والأمر، والكَلامُ الخَفِيُّ وكُلُّ ما ألْقَيْتَهُ إلى غَيْرِك، والتصويت شيئاً بعد شيء، وقيل أصله التفهيم. ويقال: أوحى ووحى .

والوحَى، والوحاء: السرعة، يقال: الوحاء الوحاء، أو الوحَى الوحَى، أي الإسراع[1] فدلّ هذا أن أصلها يدور على معنيين أصليين: الإعلام في خفاء، والسرعة، ولذا قال القرطبي في المفهم : "إلقاء الشيء في سرعة" ونحوه قال الكرماني، وقيل: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره[1].

وقد ورد في القرآن الكريم عدة استعمالات للوحي باعتبار معناه اللغوي الذي تقدمت الإشارة إليه، فمن ذلك:

١- الإلهام الفطري كالوحي إلى أم موسى .

٢- والإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل .

٣- والإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء، كإيحاء زكريا لقومه .

٤- ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان .

٥- وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمرٍ ليفعلوه[2].

---

[1] انظر: شرح الكرماني على البخاري (١/ ١٤) والمفهم للقرطبي (١/٣٧٤) ومباحث في علوم القرآن للقطان (٣٢) .

[2] انظر: مباحث في علوم القرآن (٣٢،٣٣) .

هذا وقد سمى ابن تيمية رحمه الله الوحي من الله بهذه الأمور التي تقدمت (الوحي العام) قال: وليس كل من أوحي إليه (الوحي العام) يكون نبياً، فإنه قد يوحى إلى غير الناس، قال تعالى: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾ [النحل: ٦٨] وقال تعالى: ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ [فصلت: ١٢] وقال تعالى عن يوسف عليه السلام وهو صغير: ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ [يوسف: ١٥] وقال تعالى: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ [القصص:٧] وقال تعالى: ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ﴾[1] [المائدة: ١١١] .

ب) الوحي في اصطلاح الشرع:

الوحي ـ مصدراً ـ : هو الإعلام بالشرع .

وقد يطلق ويراد به اسم المفعول منه أي الموحى، قال الحافظ ابن حجر: وهو كلام الله المنزل على النبي ﷺ، وقال الكرماني: المنزل على نبي من أنبيائه"[2] وهو أدق وأشمل .

المسألة الثانية: أنواع الوحي:

ينقسم الوحي إلى ثلاثة أنواع أساسية ذكرها الله في القرآن الكريم، قال سبحانه: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحيَ بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم ﴾ [الشورى : ٥١] .

قال ابن جرير رحمه الله: (وما ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه ربه إلا وحياً يوحي الله إليه كيف شاء أو إلهاماً وإما غيره ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ يقول: أو يكلمه بحيث يسمع ولا يراه كما كلم موسى نبيه ﷺ ﴿أو يرسل رسولاً﴾ يقول: أو يرسل الله من ملائكته رسولاً إما جبرائيل وإما غيره)[3].

قال البيهقي في تفسير هذه الآية: قال بعض أهل التفسير: فالوحي الأول، ما أرى الله سبحانه وتعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في منامهم، كما أمر إبراهيم عليه السلام في منامه بذبح ابنه، فقال فيما أخبر عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى

---

[1] النبوات لابن تيمية (٢/٦٩٠) .

[2] انظر : شرح الكرماني (١/١٤) والفتح (١/١٥) .

[3] تفسير الطبري (١١/ ١٦٢) .

قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾ [الصافات:١٠٢] قال الإمام المطلبي الشافعي ﷺ: قال غير واحد من أهل التفسير: رؤيا الأنبياء وحي، لقول ابن إبراهيم الذي أُمر بذبحه: ﴿افعل ما تؤمر﴾ . اهـ .

وروى البخاري[١] عن عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي وقرأ ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك ﴾ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه[٢].

وروى البيهقي وابن وهب عن ابن شهاب أنه سئل عن هذه الآية: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم﴾ [الشورى:٥١] .

قال نرى هذه الآية تعدّ من أوحى الله إليه من البشر، فالكلام: ما كلم الله به موسى من وراء حجاب، والوحي، ما يوحي الله إلى النبي ﷺ من الهداية، فيثبت الله ما أراد من وحيه في قلب النبي ﷺ فيتكلم به النبي ﷺ ويكتبه، فهو كلام الله ووحيه، ومنه ما يكون بين الله وبين رسله لا يكلم به أحد من الأنبياء أحداً من الناس، ولكنه يكون سرّ غيب بين الله وبين رسله .

ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه ولكنهم يحدثون به الناس ويأمرونهم ببيانه، ويبينون لهم أمرهم أن يبينوه للناس ويعلموهم إياه .

ومن الوحي: ما يرسل الله من يشاء من ملائكته فيوحيه وحياً في قلوب من يشاء من رسله، وقد بين لنا في كتابه أنه كان يرسل جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام فقال في كتابه: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ [البقرة: ٩٧] وقال ﷻ: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ إلى قوله: ﴿ بلسان عربي مبين ﴾[٣]. [الشعراء: ١٩٥]

ونقل القرطبي في قوله تعالى: ﴿ وحياً ﴾ عن مجاهد قوله: (نفث ينفث في قلبه فيكون إلهاماً ومنه قوله ﷺ: ((إن روح القدس نفث في روعي))...الخ وقيل: (إلا وحياً) رؤيا يراها في منامه قاله محمد بن زهير... وقيل: (إلا وحياً) بإرسال جبريل ﴿ أو من وراء حجاب﴾ كما كلّم موسى ﴿ أو يرسل رسولاً ﴾ إلى الناس كافة[٤].

---

[١] صحيح البخاري (١٣٨) كتاب الوضوء (باب التخفيف في الوضوء) ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٥٣) .

[٢] رواه ابن أبي حاتم (٣٢٢١/١٠)، والحاكم (٢/ ٤٦٨ و٤/ ٤٣٨) وصححه، وذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٢٥٣) وابن عبد البر في التمهيد (٣٩٣/٦) .

[٣] رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢٥٧) وعزاه ابن عبد البر (١١٣/٢٢) لابن وهب .

[٤] تفسير القرطبي (٤٨/١٦) .

قلت: استدلاله بالحديث إن روح القدس نفث في روعي، لا يستقيم هاهنا لأن القسم الأول من الوحي ذكر بلا واسطة، والقسم الأخير (الثالث) ذكر بواسطة الملك، ومنه النفث في الروع . فحمله على الإلهام أو المنام أو ما يشبهه أسلم . والله أعلم .

هذا وقد عمم ابن تيمية رحمه الله صدر الآية ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ عمم في الأنبياء وغيرهم، فقال: يتناول وحي الأنبياء وغيرهم كالمحدثين الملهمين كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ((قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم))[1] وقال عبادة بن الصامت ﷺ: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحى إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب وإلهام وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم[2].

وقد ثبت في الصحيح[3] عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام ﷺ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)) .

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

ففي هذا الحديث دلالة على أن الوحي على رسول الله ﷺ له حالتان، وهذا يعني أنه الوحي الذي بواسطة الملك للرواية الأخرى في البخاري (كل ذلك يأتي الملك) والملك قد يأتي على حالات وهيئات، وهذا لا ينفي أن يكون هناك أنواع أخرى للوحي كما في الآية: حالة الوحي المجرد، وحالة الكلام من وراء حجاب .

هذا وقد جعل ابن القيم رحمه الله للوحي مراتب فقال:

---

[1] البخاري (٣٤٦٩) في كتاب أحاديث الأنبياء (باب حديث الغار) ومسلم (٢٣٩٨) في كتاب فضائل الصحابة (باب من فضائل عمر) .

[2] النبوات (٢/٦٩١-٦٩٣) .

[3] البخاري (٢) في كتاب بدء الوحي (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ) ومسلم (٢٣٣٣) في كتاب الفضائل (باب عرق النبي ﷺ في البرد، وحين يأتيه الوحي) . قوله: (فيفصم) يقلع وأصل الفصم القطع من غير إبانة (ليتفصد) يسيل من الفصد وهو قطع العرق لإسالة الدم .

وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة:

إحداها: الرؤيا الصادقة وكانت مبدأ وحيه ﷺ وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال النبي ﷺ: ((إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته))[1].

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ﷺ فثقلت عليه حتى كادت ترضها[2].

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في النجم : (٧ ـ ١٣) .

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى عليه السلام قطعاً بنص القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب وهذا على مذهب من يقول : إنه ﷺ رأى ربه تبارك وتعالى وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف وإن كان جمهور الصحابة رضي الله عنهم بل كلهم مع عائشة رضي الله عنها كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعاً للصحابة[3].

---

[1] رواه الطبراني في الكبير (٧٢/٤. مجمع الزوائد) من حديث أبي أمامة ﷺ، وله شاهد من حديث ابن مسعود ﷺ عند الحاكم (٤/٢) وآخر من حديث جابر ﷺ عند ابن ماجه (٢١٤٤)، وآخر من حديث حذيفة ﷺ عند البزار (المجمع ٧١/٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٨٥) وشعيب وعبد القادر الأرناؤوط في تعليقهما على زاد المعاد .

[2] رواه البخاري تعليقاً في كتاب الصلاة (باب ما يذكر في الفخذ) .

[3] زاد المعاد (٧٨/١ ـ ٨٠).

قلت: لا أجد فرقاً بين السادسة والسابعة، ولذلك لم يعدها عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب[١] رحمهما الله، بل قال: قال ابن القيم: زاد بعضهم مرتبة سابعة، وهي تكلم الله له بغير حجاب . قلت: وهي الثامنة من كلام ابن القيم رحمه الله .

وقد ذكر ابن الشيخ محمد رحمه الله أن بعضهم زاد مرتبة أخرى وهي: العلم الذي يلقيه الله في قلبه، وعلى لسانه عند الاجتهاد في الأحكام، لأنه عليه الصلاة والسلام إذا اجتهد أصاب قطعاً وكان معصوماً من الخطأ، وهذا خرق للعادة في حقه دون الأمة، وهو يفارق النفث في الروع من حيث حصوله بالاجتهاد، والنفث بدونه [٢]. اهـ .

أما الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى فقد حصر هذه الأنواع في صفتين: **صفة الوحي**، كمجيئه كدوي النحل، والنفث في الروع..**وصفة حامل** الوحي كمجيئه في صورته التي خلق عليها...[٣]، وكل صفة تحتها صور .

وقد استشكل حصر الحديث السابق الوحي بهاتين الحالتين (كالصلصلة، وتمثل الملك رجلاً) مع وجود حالات أخرى، والجواب من جهتين:

الأولى: أنه لا يمنع أن يكون الوحي على هاتين الحالتين ولو تشكل الملك بهيئات مختلفة .

والثانية[٤]: أن يحمل حديث الحارث بن هشام ﷺ على الوحي المختص بالقرآن، وهذا هو المتبادر للذهن من سؤاله عن الوحي، وهو ما يدل عليه سياق الحديث، ويدل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كان يعاني من التنزيل شدةً، وذلك حينما أنزل الله عليه: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾[٥].

وأما الوحي بغير القرآن فيكون في حالات أخرى، كالرؤيا والنفث في الروع، والإلهام، وكما رآه على صورته التي خلقه الله عليه، وكما كان يرى على صورة رجل أمام الصحابة كحديث جبريل المشهور فإنه وحي ولكنه ليس قرآناً، والله أعلم .

هذا وقد أجاب الحافظ ابن حجر فقال:

والجواب: منع الحصر في الحالتين المقدم ذكرهما وحملهما على الغالب أو حمل ما يغايرهما على أنه وقع بعد السؤال أو لم يتعرض لصفتي الملك المذكورتين لندورهما فقد

---

[١] مختصر السيرة للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (١٠٦).

[٢] المصدر نفسه (١٠٦) .

[٣] انظر الفتح (٢٧/١) .

[٤] هذا جواب من عندي بعد النظر في عموم هذه الحالات، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان. والله يعفو ويغفر.

[٥] رواه البخاري (٥) في كتاب بدء الوحي (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ) ومسلم (٤٤٨) في كتاب الصلاة (باب الاستماع للقراءة).

ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنه لم يره كذلك إلا مرتين أو لم يأتِه في تلك الحالة بوحي أو أتاه به فكان على مثل صلصلة الجرس فإنه بيَّن بها صفة الوحي لا صفة حامله وأما فنون الوحي فدوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين كما في حديث عمر ﷺ يسمع عنده كدوي النحل، والصلصلة بالنسبة إلى النبي ﷺ . فشبهه عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين، وشبهه هو ﷺ بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه . وأما النفث في الروع، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين فإذا أتاه الملك في مثل صلصلة الجرس نفث حينئذ في روعه، وأما الإلهام فلم يقع السؤال عنه لأن السؤال وقع عن صفة الوحي الذي يأتي بحامل وكذا التكليم ليلة الإسراء..."[1].

هذا هو الوحي عند أهل السنة والجماعة فما هو الوحي عند الفلاسفة وغلاة المتصوفة والملحدين؟ وهذا ما سنتكلم عليه في المسألة التالية:

المسألة الثالثة: الوحي عند الفلاسفة وغلاة المتصوفة والملحدين: الوحي عندهم هو عبارة عن اجتماع خاصيتين في شخص ما:

الخاصة الأولى: أن يكون له قوة قدسية وهي قوة الحدس بحيث يحصل له من العلم بسهولة ما لا يحصل لغيره إلا بكلفة شديدة وقد يعبرون عن ذلك بأنه يدرك الحد الأوسط من غير احتياج إلى ما يحتاج إليه من ليس مثله، وحاصل الأمر أنه أذكى من غيره وأن العلم عليه أيسر منه على غيره .

الخاصة الثانية: قوة التخييل والحس الباطن بحيث يتمثل له ما يعلمه في نفسه فيراه ويسمعه فيرى في نفسه صوراً نورانية هي عندهم ملائكة الله، ويسمع في نفسه أصواتاً هي عندهم كلام الله، من جنس ما يحصل للنائم في منامه، ومن جنس ما يحصل لبعض أهل الرياضة...[2].

ويترتب على هذا أنهم يقولون: إن ما أخبرت به الرسل من أمور الربوبية واليوم الآخر إنما هو تخييل وأمثال مضروبة لا أنه إخبار عن الحقائق على ما هي عليه[3].

ويترتب عليه أمور أخرى سنذكرها في حينها إن شاء الله تعالى .

---

[1] الفتح (٢٧/١) .

[2] انظر الصفدية لابن تيمية (١/ ٦)

[3] المصدر نفسه (٧/١)

المسألة الرابعة : الوحي كلام الله :

ومما يتعلق بمسألة الوحي ويتفرع عنها: مسألة صفة الكلام لله تعالى، فقد اختلفت أصحاب المقالات في كلام الله تعالى اختلافاً كثيراً، وهناك أقوال مشهورة اشتهرت بها بعض الفرق خلافاً لأهل السنة والجماعة .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي مقرراً عقيدة أهل السنة:

وإن القرآن كلام الله منه بدا **بلا كيفية قولاً**، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى **بالحقيقة** ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿سأصليه سقر﴾ فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر .

قلت: في هذه الفقرة من كلام الإمام أبي جعفر رحمه الله أربع مسائل مهمة متعلقة بعقيدة أهل السنة في الكلام:

الأولى: كلام الله منه بدا، فيه ردٌ على المعتزلة الذين يقولون لم يبدُ من شيء، وأن الكلام خلقٌ خلقه الله سماه كلاماً، وأضافه إليه إضافة تشريف .وفيه ردٌ أيضاً على القائلين بأن كلام الله كلام نفسي، لم يتكلم به حقيقة، وإنما عبر جبريل عما في نفس الله تعالى فكان قرآناً أو توراة ..

الثانية: قوله بلا كيفية قولاً، ردٌ أيضاً على الممثلة الذين يقولون إن كلام الله مثل كلام البشر .

وردٌ على الذين يقولون إن كلام الله تعالى كلام نفسي، ولم يتكلم به حقيقة، لأنه لو كان كلاماً نفسياً لما احتاج أن يقول بلا كيفية قولاً .

وكذلك الأمر في قوله: (وأيقنوا أنه كلام الله تعالى **بالحقيقة**) .

وفي قوله (قولاً) ردٌ على المعتزلة الذين يزعمون أن الله لم يتكلم وإنما خلق الكلام، كما سوف يأتي من كلام ابن أبي العز رحمه الله تعالى .

الثالثة: أن كلام الله غير مخلوق، لأنه صفة من صفاته .

الرابعة: أن من زعم أن كلام الله مخلوق فقد كفر .

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله شارحاً قول الطحاوي: هذه قاعدة شريفة وأصل كبير من أصول الدين ضل فيه طوائف كثيرة من الناس وهذا الذي حكاه الطحاوي

رحمه الله هو الحق الذي دلّت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة .

وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال، ثم سردها [١].

وأنا أذكر منها ثلاثة لأنها الأشهر، بالإضافة إلى قول أهل السنة .

أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره وهذا قول الصابئة والمتفلسفة، وقد تقدم قبل قليل قول الفلاسفة هذا.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه وهذا قول المعتزلة .

وقد تضمن قول الطحاوي رداً على المعتزلة وغيرهم، فقوله[٢]: كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً: ردٌّ على المعتزلة وغيرهم فإن المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبدُ منه كما تقدم حكاية قولهم قالوا: وإضافته إليه إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله يحرفون الكلام عن مواضعه ! وقولهم باطل فإن المضاف إلى الله تعالى معان وأعيان فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف، وهي مخلوقة له، كبيت الله وناقة الله بخلاف إضافة المعاني كعلم الله وقدرته وعزته وجلاله وكبريائه وكلامه وحياته وعلوه وقهره، فإن هذا كله من صفاته لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً .

وثالثها: ما ذهب إليه ابن كلاب وتبعه على ذلك الأشاعرة وغيرهم حيث قسم ابن كلاب الكلام إلى نوعين: كلام نفسي وكلام لفظي، وأن المراد بوصف الله بأنه متكلم هو وصف لما في نفس الله وليس أن القرآن الذي نقرأه هو كلامه، وإنما هو عبارة عن كلام الله تعالى، فوصف الكلام بأنه معنى واحد قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً [٣].

وذكر السبكي في تقرير قول ابن كلاب: أن كلامه تعالى لا يتصف بالأمر والنهي والخبر، في الأزل ـ لحدوث هذه الأمور وقِدم الكلام النفسي ـ وإنما يتصف بذلك فيما لا يزال [٤].

---

[١] انظر شرح الطحاوية (١٦٨ـ ١٦٩) .

[٢] المصدر نفسه (١٦٩) .

[٣] انظر: التبصير في الدين للإسفرائيني (١٦٧) وأصول الدين للغزنوي (١٠٣ـ١٠٥) والغنية في أصول الدين لأبي سعيد عبد الرحمن بن محمد المتولي (١٠٩) ومجموع الفتاوى (١٢/١٢٠ـ١٢١) وشرح الطحاوية (١٦٩) .

[٤] طبقات الشافعية (٢/٣٠٠) .

وقال ابن تيمية عن قول الكلابية والأشعرية: يقولون: إن القرآن العربي ليس هو كلام الله، وإنما كلامه المعنى القائم بذاته، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ثم إما أن يكون خلق في بعض الأجسام، الهواءِ أو غيرهِ، أو أُلهمه جبريل، فعبر عنه بالقرآن العربي، أو أُلهمه محمدٌ فعبر عنه بالقرآن العربي، أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره[١].

وذكر الذهبي رحمه الله أن ابن كلاب أول من أنشأ هذا القول المخالف المحدث، فقال: وكان يقول : القرآن قائم بالذات بلا قدرة وبلا مشيئة، وهذا ما سبق إليه أبداً[٢].

وأما قول أهل السنة فهم يعتقدون[٣]: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة... والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال وضده من أوصاف النقص قال تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ [الأعراف: ١٤٨] فكان عباد العجل ـ مع كفرهم ـ أعرف بالله من المعتزلة فإنهم لم يقولوا لموسى: وربك لا يتكلم أيضاً وقال تعالى عن العجل أيضاً: ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ [طه:٨٩] فعلم أن نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل .

وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم، فيقال لهم: إذا قلنا إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ﴾ [يس:٦٥] فنحن نؤمن أنها تتكلم، ولا نعلم كيف تتكلم، وكذا قوله تعالى : ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ [فصلت:٢١] وكذلك تسبيح الحصا والطعام وسلام الحجر كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقطع الحروف .

وإلى هذا أشار الشيخ (الطحاوي) رحمه الله بقوله: منه بدا بلا كيفية قولاً أي : ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به،وأكد هذا المعنى بقوله قولاً أتى بالمصدر المعرف

---

[١] مجموع الفتاوى (١٢/١٢٠) .

[٢] سير أعلام النبلاء (١١/١٧٥) وانظر مجموع الفتاوى (٦/٥٢٢) .

[٣] انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١٦٩ـ١٧٠) .

للحقيقة كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت النافي للمجاز في قوله : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ !

ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء ـ أحد القراء السبعة ـ: أريد أن تقرأ : ﴿ وكلم اللّهَ موسى ﴾ ـ بنصب اسم الله ـ ليكون موسى هو المتكلم لا الله ! فقال أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية كذا ، فكيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ؟ ! فبهت المعتزلي !

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم قال تعالى: ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ ...

وكيف يصح مع هذا أن يكون كلام الرب كله معنى واحداً وقد قال تعالى: ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ﴾ [آل عمران: ٧٧] فأهانهم بترك تكليمهم والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم وهو الصحيح إذ قد أخبر في الآية الأخرى أنه يقول لهم في النار: ﴿ اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لكانوا في ذلك هم وأعداؤه سواء ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلاً وقال البخاري في صحيحه: باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة وساق فيه عدة أحاديث فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى وتكليمه لهم فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة وأعلى نعيمها وأفضله الذي ما طابت لأهلها إلا به . انتهى كلام ابن أبي العز رحمه الله .

قال الإمام أحمد ابن تيمية مِدرهُ السنة الأقدر وقامع البدعة الأقهر رحمه الله في رده على هذه الأقوال المخالفة لمعتقد أهل السنة وذلك أثناء كلامه عن قوله ﴿ نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النحل:١٠٢] قال: وفي قوله منزل من ربك دلالة على أمور:

منها: بطلان قول من يقول إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم فإن السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال إن القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة جهمياً ، فإن جهماً أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات وبالغ في نفي ذلك فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه وإن كان الجعد بن درهم قد سبقه إلى بعض ذلك .

فإن الجعد بن درهم أول من أحدث ذلك في الإسلام .... وجهم يقول أن الله تعالى لا يتكلم، أو يقول أنه يتكلم بطريق المجاز، وأما المعتزلة فيقولون أنه يتكلم حقيقة لكن قولهم في المعنى هو قول جهم، ... والمقصود أن قوله ﴿ منزل من ربك ﴾ فيه بيان أنه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات ولهذا قال السلف: (منه بدأ) أي هو الذي تكلم به لم يبتدأ من غيره كما قالت الخلقية [1].

ومنها: أن قوله ﴿منزل من ربك﴾ فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي ﷺ من العقل الفعال أو غيره كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة وهذا القول أعظم كفراً وضلالاً من الذي قبله .

ومنها: أن هذه الآية أيضاً تبطل قول من يقول أن القرآن العربي ليس منزلاً من الله بل مخلوق إما في جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية الذين يقولون أن القرآن العربي ليس هو كلام الله وإنما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ثم إما أن يكون خلق في بعض الأجسام، الهواء أو غيره أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي أو ألهمه محمد فعبر عنه بالقرآن العربي أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره فهذه الأقوال التي تقدمت هي تفريع على هذا القول فإن هذا القرآن العربي لا بد له من متكلم تكلم به أولاً قبل أن يصل إلينا، وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن العربي وكذلك التوراة العبرية ويفارقه من وجهين:

أحدهما: أن أولئك يقولون أن المخلوق كلام الله وهؤلاء يقولون أنه ليس كلام الله لكن يسمى كلام الله مجازاً وهذا قول أئمتهم وجمهورهم، وقالت طائفة من متأخريهم بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظي، لكن هذا ينقض أصلهم في إبطال قيام الكلام بغير المتكلم به، وهم مع هذا لا يقولون أن المخلوق كلام الله حقيقة كما تقوله المعتزلة، مع قولهم أنه كلامه حقيقة، بل يجعلون القرآن العربي كلاماً لغير الله وهو كلام حقيقة، وهذا شر من قول المعتزلة، وهذا حقيقة قول الجهمية، ومن هذا الوجه فقول المعتزلة أقرب، وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة، لكن المعتزلة في المعنى موافقون لهؤلاء، وإنما ينازعونهم في اللفظ .

---

[1] أي الذين يقولون: إن القرآن مخلوق وهم المعتزلة ومن وافقهم .

الثاني: أن هؤلاء يقولون لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته، والخلقية يقولون لا يقوم بذاته كلام، ومن هذا الوجه فالكلابية خير من الخلقية في الظاهر، لكن جمهور الناس يقولون: إن أصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا له كلاماً حقيقة غير المخلوق فإنهم يقولون أنه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر فإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً...

وقال جمهور العقلاء نحن إذا عربنا التوراة والإنجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن، بل معاني هذا ليست معاني هذا، ومعاني هذا ليست معاني هذا، وكذلك معنى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ليس هو معنى ﴿تبت يدا أبى لهب ﴾ ولا معنى آية الكرسي هو معنى آية الدين، وقالوا إذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئاً واحداً فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة فاعترف أئمة هذا القول بأن هذا الإلزام ليس لهم عنه جواب عقلي...[1].

والمقصود هنا أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول كما تبين بطلان غيره، فإن قوله ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ يقتضي نزول القرآن من ربه، والقرآن: اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه، بدليل قوله: ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة، وأيضاً فضمير المفعول في قوله ﴿نزله﴾ عائد على ما في قوله ﴿والله أعلم بما ينزل ﴾ فالذي أنزله الله هو الذي نزله روح القدس، فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربي، لزم أن يكون نزله من الله، فلا يكون شيء منه نزله من عينٍ من الأعيان المخلوقة، ولا نزّله من نفسه[2]. أي جبريل .

وقال الإمام الفقيه الموفق ابن قدامة الحنبلي صاحب المغني وهو يرد على أصحاب الكلام النفسي: وقال: ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ [هود:١٣] والتحدي إنما وقع بالإتيان بمثل هذا الكتاب بغير إشكال، لأن ما في النفس لا يدرى ما هو ولا يسمى سوراً ولا حديثاً فلا يجوز أن يقال فأتوا بحديث مثل ما في نفس الباري، ولأن المشركين إنما زعموا أن النبي ﷺ افترى هذا القرآن أو تقوله، فرد الله عليهم دعواهم فتحداهم بالإتيان بمثل ما زعموا أنه مفترى ومتقول دون غيره[3].اهـ .

---

[1] منهم الآمدي كما ذكر عنه شيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/١٢٣) .

[2] مجموع الفتاوى (١٢/١١٨-١٢٣) وانظر: (٩/٢٨٣) .

[3] البرهان في بيان القرآن، نقلاً عن لوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار السُنية في شرح منظومة ابن أبي داود الحائية، للسفاريني (١/٢١٢) .

وقال أيضاً: وأجمعوا على أن في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، ولا تعلق لذلك بالكلام النفسي...[١]. اهـ .

قال الإمام ابن تيمية[٢]: والبدعة كلما فُرّع عليها وذكر لوازمها زادت قبحاً وشناعةً وأفضت بصاحبها إلى أن يخالف ما يعلم بالاضطرار من العقل والدين ... وهذا كما أن أقواماً ابتدعوا أن حروف القرآن ليست من كلام الله، وأن كلام الله إنما هو معنى قائم بذاته هو الأمر والنهي والخبر، وهذا الكلام فاسد بالعقل الصريح والنقل الصحيح، فإن المعنى الواحد لا يكون هو الأمر بكل مأمور والخبر عن كل مخبر ولا يكون معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحداً، وهم يقولون: إذا عبر عن ذلك الكلام بالعربية صار قرآناً، وإذا عبر عنه بالعبرية، صار توراةً، وهذا غلط فإن التوراة يعبر عنها بالعربية، ومعانيها ليست هي معاني القرآن، و القرآن يعبر عنه بالعبرية، وليست معانيه هي معاني التوراة .

وهذا القول أول من أحدثه ابن كلاب ولكنه هو ومن اتبعه عليه كالأشعري[٣]وغيره يقولون مع ذلك: إن القرآن محفوظ بالقلوب حقيقة، متلو بالألسن حقيقة، مكتوب في المصاحف حقيقة .

ومنهم من يمثل ذلك[٤]: بأنه: محفوظ بالقلوب كما أن الله معلوم بالقلوب، ومتلو بالألسن، كما أن الله مذكور بالألسن، ومكتوب في المصاحف، كما أن الله مكتوب في المصاحف، وهذا غلط في تحقيق مذهب ابن كلاب والأشعري، فإن القرآن عندهم معنى عبارة عنه . اهـ .

ثم بين رحمه الله أن هذا القول جرّ بعض أتباعهم بأن قالوا: إن القرآن معنى قائم بذات الله فقط وأن الحروف ليست من كلام الله، بل خلقها الله في الهواء، أو صنفها جبريل،

---

[١] المصدر نفسه (٢١٧/١) .

[٢] مجموع الفتاوى (٤٢٣/٨ ـ ٤٢٥) .

[٣] ثبت عن الأشعري رحمه الله أنه رجع عن معتقد ابن كلاب إلى قول الإمام أحمد وأهل الحديث وهذا ما سطره في كتابه الإبانة، ومعتقد أهل الحديث من كتابه مقالات الإسلاميين، وهذا ظاهر جداً حيث عقد فصلاً لمعتقد أهل الحديث وأيده فقال (٢٩٧) (وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب..) وكان قد عقد فصلاً في عقيدة ابن كلاب (١٦٩) و(٢٩٨) ولم يذكر تأييده له كما ذكر عن أهل الحديث ودل أن معتقد ابن كلاب غير معتقد أهل السنة والحديث، وإلا لما فرّقهما الأشعري، ولما أيد أحدهما دون الآخر.

[٤] انظر: أصول الدين لجمال الغزنوي (١٠٤) .

أو محمد، فضموا إلى ذلك أن المصحف ليس فيه إلا مداد وورق، وأعرضوا عما قاله سلفهم من أن ذلك دليل على كلام الله فيجب احترامه، لما رأوا أن مجرد كونه دليلاً لا يوجب الاحترام، كالدليل على الخالق المتكلم بالكلام، فإن الموجودات كلها أدلة عليه ولا يجب احترامها، فصار هؤلاء يمتهنون المصحف حتى يدوسوه بأرجلهم، ومنهم من يكتب أسماء الله بالعَذِرة إسقاطاً لحرمة ما كتب في المصاحف والورق من أسماء الله وآياته، وقد اتفق المسلمون على أن من استخف بالمصحف مثل أن يلقيه في الحش أو يركضه برجله إهانة له أنه كافر مباح الدم، فالبدع تكون في أولها شبراً ثم تكثر في الأتباع حتى تصير أذرعاً وأميالاً وفراسخ . اهـ .

المبحث الثالث: النبوة:

المسألة الأولى : تعريف النبي والرسول لغة:

يقال: النبوة والنباوة، أي الارتفاع عن الأرض، أو أن اشتقاقه من نبأ وأنبأ بمعنى أخبر، كما في قوله تعالى ﴿ عم يتساءلون ۞عن النبأ العظيم ﴾[1] [النبأ : ١-٢] .

ولفظ الإنباء: يتضمن الإعلام والإخبار [2].

والنبي: فعيل، وفعيل قد يكون بمعنى فاعل، أي منبئ، وبمعنى مفعول، أي: منبأ، وهما هنا متلازمان فالنبي الذي ينبئ بما أنبأه الله به والنبي الذي نبأه الله وهو منبأ بما أنبأه الله به[3].

والرسول لغة: مشتق من الإرسال، ومعناه البعث والتوجيه، والإطلاق والامتداد، يقال: أرسلت فلاناً في رسالة: أي بعثته، فهو مرسل ورسول[4].

المسألة الثانية: الفرق بين النبي والرسول:

اشتهر على ألسنة أهل العلم أن النبي هو من أوحي إليه وحي، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه[5]، ولعل الراجح أن بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً، فالنبوة داخلة في الرسالة، والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من

---

[1] انظر: لسان العرب، مادة (نبأ)(١/١٦٢-١٦٣) ومادة (نبا)(١٥/٣٠١) .

[2] النبوات لابن تيمية (٨٧٨) وانظر (٨٨١) وما بعدها ففيها بحث لغوي شيق .

[3] المصدر نفسه (٨٧٣) وانظر: (٦٨٧) .

[4] انظر لسان العرب (رسل) (١١/٢٨٣- ٢٨٤) والقاموس المحيط (١٣٠٠) .

[5] انظر: شرح الطحاوية (١٥٨) ولوامع الأنوار (١/٤٩) .

جهة أهلها فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً. فالأنبياء أعم والنبوة نفسها جزء من الرسالة، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة فإنها لا تتناول الرسالة[١].

قال ابن تيمية: فالنبي: هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيته ﴾[الحج: ٥٢] وقوله: ﴿ من رسول ولا نبي ﴾ فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح عليه السلام، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم عليه السلام كان نبياً مكلماً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام)[٢].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي[٣]: (واستظهر بعضهم: أن النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول هو من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة، كما بيّنه تعالى: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾ [المائدة: ٤٤]) .

المسألة الثالثة: ما حقيقة النبوة ؟

أ) **حقيقة النبوة عند الجهمية والأشاعرة:** النبوة عند الجهمية والأشاعرة مجرد إعلام النبي بما أوحاه الله إليه، والرسالة مجرد أمره بتبليغ ما أوحاه الله إليه، والنبوة عندهم ليست صفة ثبوتية، ولا مستلزمة لصفة يختص بها، بل هي من الصفات الإضافية، فهي ليست صفة راجعة إلى نفس النبي، ولا معنى يعود إلى ذات من ذاتيات النبي ولا إلى عرض من أعراضه استحقها بكسبه وعلمه.. بل إلى مجرد تعلق خطاب الوحي بالنبي، كما يقولون مثل ذلك في الأحكام الشرعية فهي عندهم ليست إلا مجرد خطاب الله المتعلق

---

[١] انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (١٠/٧) مجموع الفتاوى .

[٢] النبوات (٧١٤/٢ـ٧١٥) .

[٣] أضواء البيان (٧٣٥/٥) .

بأفعال المكلفين من غير أن يكون للفعل نفسه صفة اقتضت تخصيصه بالحكم كذلك يقول هؤلاء ليس للنبي في نفسه صفة اقتضت تخصيصه بالنبوة[١].

ب) وذهب أهل السنة والجماعة إلى أن النبوة اصطفاء واختيار من الله تعالى لبعض عباده، قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال: ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾ [طه: ١٣] وقال: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ [الأعراف: ١٤٤] وقال: ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ [طه:١٢٢] وقال: ﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [البقرة: ١٠٥] وقال: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ [القصص: ٦٨]، والمراد بالاختيار هنا الاجتباء والاصطفاء، وهو اختيار من الخلق بعد خلقهم، وأصح القولين أن الوقف التام على قوله: ﴿ويختار﴾ ويكون ما لهم الخيرة نفياً، أي ليس هذا الاختيار لهم، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، ومحالّ رضاه، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له، وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه[٢].

ومن ذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام، واختياره الرسل منهم، واختياره أولي العزم منهم، وهم خمسة، واختار منهم الخليلين: إبراهيم ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وظهر أثر هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم وتوحيدهم ومنازلهم في الجنة ومقاماتهم في الموقف..

قال ابن القيم رحمه الله وهو يتكلم عن التفضيل والاختيار: وهذا كله سر إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وطهر بيتي ﴾ [الحج : ٢٦] فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته، كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضته من ذلك، وكذلك إضافته عبادَه المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم، فكل ما أضافه الرب تعالى إلى نفسه فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء، ثم يكسوه بهذه الإضافة تفضيلاً آخر، وتخصيصاً وجلالةً زائداً على ما كان له قبل الإضافة، ولم يوفق لفهم هذا المعنى من

---

[١] انظر: نهاية الإقدام للشهرستاني (٤٦٢) وغاية المرام في علم الكلام للآمدي (٣١٧) ومنهاج السنة لابن تيمية (٤١٤/٢) وشرح الأصفهانية له (١٦٠) .

[٢] زاد المعاد (٣٩/١)، وانظر بعدها فصلاً شيقاً في الاختيار والتفضيل .

سوَّى بين الأعيان والأفعال، والأزمان والأماكن، وزعم أنه لا مزية لشيء منها على شيء، وإنما هو مجرد الترجيح بلا مرجح، وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجهاً قد ذُكِرت في غير هذا الموضع، ويكفي تصور هذا المذهب الباطل في فساده فإن مذهباً يقتضي أن تكون ذوات الرسل كذوات أعدائهم في الحقيقة، وإنما التفضيل بأمر لا يرجع إلى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها، وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة مزية البتة، وإنما هو لما يقع فيها من الأعمال الصالحة، فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام ومنى وعرفة والمشاعر على أي بقعة سميتها من الأرض، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود إليها ولا إلى وصف قائم بها، والله سبحانه وتعالى قد رد هذا القول الباطل بقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ قال الله تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : ١٢٤] أي: ليس كل أحد أهلاً ولا صالحاً لتحمل رسالته، بل لها محالّ مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصح إلا لها، والله أعلم بهذه المحالّ منكم، ولو كانت الذوات متساوية كما قال هؤلاء لم يكن في ذلك رد عليهم وكذلك قوله تعالى: ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ [الأنعام : ٥٣] أي: هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمته فيختصه بفضله ويمنّ عليه، ممن لا يشكره، فليس كل محل يصلح لشكره، واحتمال منته، والتخصيص بكرامته، فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها، مشتملة على صفات وأمور قائمة بها ليس لغيرها، ولأجلها اصطفاها الله، وهو سبحانه الذي فضلها بتلك الصفات، وخصها بالاختيار، فهذا خلقه وهذا اختياره ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ [القصص: ٦٧] وما أبين بطلان رأي يقضي بأن مكان البيت الحرام مساوٍ لسائر الأمكنة، وذات الحجر الأسود مساوية لسائر حجارة الأرض، وذات رسول الله ﷺ مساوية لذات غيره، وإنما التفضيل في ذلك بأمور خارجة عن الذات والصفات القائمة بها، وهذه الأقاويل وأمثالها من الجنايات التي جناها المتكلمون على الشريعة ونسبوها إليها وهي بريئة منها وليس معهم أكثر من اشتراك الذوات في أمر عام وذلك لا يوجب تساويها في الحقيقة لأن المختلفات قد تشترك في أمر عام مع اختلافها في صفاتها النفسية... ولم نقصد استيفاء الرد على هذا المذهب المردود المرذول، وإنما قصدنا تصويره، وإلى اللبيب العادل العاقل

التحاكم، ولا يعبأ الله وعباده بغيره شيئاً، والله سبحانه لا يخصص شيئاً ولا يفضله ويرجحه إلا لمعنى يقتضي تخصيصه وتفضيله، نعم هو معطي ذلك المرجح وواهبه فهو الذي خلقه ثم اختاره بعد خلقه وربك يخلق ما يشاء ويختار[١].

جـ) موقف المعتزلة من حقيقة النبوة: وأما المعتزلة فقولهم يقارب قول أهل السنة في ذلك، إلا أنهم بناء على آرائهم العقلية في مسألة التحسين والتقبيح والتعديل والتجويز، أوجبوا على الله سبحانه وتعالى أن يبعث الرسل، وأوجبوا عليه أن يختار، قال ابن تيمية: والمعتزلة يقولون بالاختيار المتضمن لشريعة عقلية ألزموه بها في التعديل والتجويز ونحو ذلك[٢].

وقال: قد يقول من يقول من المعتزلة: إن النبوة جزاء على عمل متقدم، وإن النبي لما قام بواجبات عقلية أكرمه الله تعالى عليها بالنبوة، مع كون النبي متميزاً بصفات خصه الله تعالى بها، وهذا القول موافق في الجملة قول أكثر الناس، وهو أن النبوة والرسالة تتضمن كلام الله سبحانه، الذي ينزل على رسوله ونبيه، وإنه مع ذلك مختص بصفات اختصه الله تعالى بها دون غيره من الأنبياء، وأنه لا يكون النبي والرسول كسائر الناس في العقل والخلق وغير ذلك، بل هو متميز عن الناس بذلك، والنبوة فضل الله يؤتيه من يشاء، لكن مع ذلك، الله أعلم حيث يجعل رسالته[٣].

د) موقف الفلاسفة: تقدم في مسألة الوحي أن الوحي يحصل للشخص إذا اجتمعت فيه خاصيتان: القوة العلمية، وقوة التخييل، فيفيض عليه العقل الفعال، وحتى يكون نبياً لا بد أن يكون له خاصية ثالثة: بحيث تكون له من القوة العملية والنفسانية بحيث يؤثر في العنصريات تأثيراً غريباً ويتصرف في هيولي العالم كما أن العائن له قوة نفسانية يؤثر بها في المعين ويزعمون أن خوارق العادات التي للأنبياء والأولياء هي من هذا النمط[٤].

فمن كان متميزاً في قوته العلمية بحيث يستغني عن التعليم، وشُكِّل في نفسه خطابٌ يسمعه كما يسمع النائم، وشخص يخاطبه كما يخاطب النائم، وفي العملية بحيث يؤثر في العنصريات تأثيراً غريباً كان نبياً عندهم[٥].

---

[١] زاد المعاد (١/ ٥٢-٥٤).

[٢] شرح الأصفهانية (١٦٠).

[٣] شرح الأصفهانية (١٦٣).

[٤] انظر: الصفدية (١/٦-٧).

[٥] منهاج السنة (٢/٤١٥ - ٤١٦).

فالنبوة هي كمال للنفس الناطقة، تستعد به لأن تفيض عليها المعارف من العقل الفعال، من غير أن يكون هناك خطاب حقيقي لله تعالى، ولكن كلام الله سبحانه عندهم هو ما يحدث في نفس النبي من أصوات يسمعها في نفسه لا خارجاً عن نفسه[١].

هـ) ذهب غلاة المتصوفة من الاتحادية إلى أن الولي أعلى من النبي، وهذا كفر لا شك فيه، قال ابن عربي الطائي: مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي .

وذلك لأن الولي ـ بزعمهم ـ يأخذ عن الله مباشرة، والنبي يأخذ بواسطة الملك، فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة، وهذا باطل وكذب، فإن الولي لا يأخذ عن الله إلا بواسطة الرسول، وإذا كان محدَّثاً قد ألقي إليه شيء وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول من الكتاب والسنة [٢].

المسألة الرابعة : دلائل النبوة:

الطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات،... وقرروا ذلك بطرق مضطربة، وقالوا: خوارق الأنبياء يظهر مثلها على يد الساحر والكاهن والصالح، ولا يدل على النبوة لأنه لم يدعها، قالوا: ولو ادعى النبوة أحدٌ من أهل الخوارق مع كذبه لم يكن بدٌ من أن الله يعجزه عنها، فلا يخلقها على يده، أو يقيض له من يعارضه فتبطل حجته، ولأجل عدم تمييز هؤلاء بين المعجزة والسحر، التزم كثير من المتكلمين ـ ومنهم المعتزلة ـ إنكارَ خرق العادات لغير الأنبياء حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك[٣].

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح لكن الدليل غير محصور في المعجزات فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة فكيف بدعوى النبوة؟ وما أحسن ما قال حسان ﷺ:

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

---

[١] الأصفهانية (١٦١) .

[٢] انظر حقيقة مذهب الاتحاديين (١٤٦ ـ ١٥٢) وبغية المرتاد (٢٢٨) .

[٣] انظر: شرح الطحاوية (١٥٠) والنبوات لابن تيمية (١/٤٨٧) (١/٤٨٩) وقد استفاض رحمه الله في الرد على هذا القول .

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولا بد أن يفعل أموراً يبين بها صدقه، والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق ضده، بل كل شخصين ادعيا أمراً: أحدهما صادق والآخر كاذب، لا بد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة، إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور ...ولهذا قال تعالى: ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ❖ تنزل على كل أفاك أثيم ❖ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ❖ والشعراء يتبعهم الغاوون ❖ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ❖ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾[الشعراء: ٢٢١- ٢٢٦] فالكهان ونحوهم وإن كانوا أحياناً يخبرون بشيء من المغيبات ويكون صدقاً، فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن ملك وليسوا بأنبياء.... فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله، علم علماً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن، والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتى في المدعي للصناعات والمقالات، كمن يدعي الفلاحة والنساجة والكتابة وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك . والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب ؟ ...

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق البار قال لها لما جاءه الوحي: ((إني قد خشيت على نفسي)) فقالت: كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث،وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق . فهو لم يخف من تعمد الكذب فهو يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء... فذكرت خديجة ما ينفي هذا وهو ما كان مجبولاً عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم . وقد عُلم من سنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه .

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤوا عليه: إن هذا والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة . وكذلك ورقة بن نوفل لما أخبره النبي ﷺ بما رآه... وكذلك هرقل ملك الروم استدل بأمور عدة على نبوته، ومنها: وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقلتم: لا، فقلت:

قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله تعالى، وبعد أن ذكرها كلها ... وهذه صفة نبي وقد كنت أعلم أن نبياً يبعث، ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدمي هاتين..[1]. فليس في استدلال خديجة رضي الله عنها ولا النجاشي، ولا هرقل، ولا ورقة ذكر للمعجزة ولا السؤال عنها .

ويذكر ابن تيمية في هذه الاستدلالات مسلكين : الأول مسلك نوعي، فالنبوة كلها من نوع واحد، والثاني: مسلك شخصي، وهو الاستدلال بشخصية النبي على صدقه، ولو خلا ذلك من المعجزات .

قال: المسلك الأول: النوعي هو مما استدل به النجاشي على نبوته فإنه لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرؤوه عليه قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، وكذلك قبله ورقة بن نوفل... قال هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى وإن قومك سيخرجونك ...

والمسلك الثاني: الشخصي استدل به هرقل ملك الروم...[2] وخديجة رضي الله عنها استدلت على إكرامه وإعزازه .

المبحث الرابع: الإيمان بالكتب المنزلة:

والكلام تحت المبحث في مسألتين:

المسألة الأولى: الإيمان بالكتب السابقة:

لا شك أن الإيمان بالكتب التي أنزلها الله على رسله ركن ركين من أركان هذا الدين الحنيف، والكفر بواحدٍ من هذه الكتب كفر بالكتب كلها، والأدلة على ذلك كثيرة أشهر من أن تذكر في هذه العجالة، قال تعالى: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ..﴾ [البقرة: ٢٨٥]

والإيمان بالكتب يشمل أموراً:

الأول: ـ مجمل ـ وهو أن الله تعالى أنزل على رسله كتباً هداية لأقوامهم .

---

[1] شرح الأصفهانية (١٢٠ وما بعدها) وشرح الطحاوية (١٥٠ وما بعدها) .

[2] شرح الأصفهانية (١٢٦) .

الثاني: ـ مفصل ـ وهو الإيمان بما سمَّى الله تعالى من كتبه في القرآن الكريم، التوراة والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى .

الثالث: الإيمان بما وصفها الله تعالى بالقرآن وتصديق ما أخبر فيها من أخبار، والإيمان بما جاء فيها من أحكام، كما في قوله تعالى: ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ۞ من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ [آل عمران: ٣ـ ٤] ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور..﴾ الآية [المائدة: ٤٤] وقال سبحانه ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ [المائدة: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ [النساء:١٦٣] .

الرابع: أن الكتب السابقة حرِّفت وبدلت ولم تبقَ كما أنزلها الله تعالى، وذلك لحكمة أرادها الله .

الخامس: أن هذه الكتب منسوخة بالقرآن، وإلا ما جاء في القرآن موافقاً لما في الشرائع السابقة، قال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله..﴾ [المائدة: ٤٨] .

السادس: أن هذه الكتب يصدق بعضها بعضاً، كما تقدم في الآيات السابقة .

المسألة الثانية: بأي لسان نزل الإنجيل؟

اشتهر أن التوراة نزلت بالعبرانية[١] وأن الإنجيل نزل بالسريانية، فهل هذا الأمر متفق عليه، أم أنه حصل فيه خلاف ؟ هذا ما سنبينه هاهنا إن شاء الله تعالى:

جاء في لفظ الحديث عن ورقة أنه كان يكتب الكتاب العِبراني فيكتب من الإنجيل بالعِبرانية ما شاء الله أن يكتب . ووقع في كتاب التعبير من صحيح البخاري العربي، وبالعربية بدل هذين اللفظين، قال النووي: وحاصلهما أنه تمكن من معرفة دين النصارى بحيث أنه صار يتصرف في الإنجيل فيكتب أي موضع شاء منه بالعبرانية إن شاء وبالعربية إن شاء والله اعلم [٢]. قال الكرماني في شرح البخاري معلقاً على كلام النووي: يفهم منه أن الإنجيل ليس عبرانياً وهو المشهور[٣]. اهـ .

---

[١] العبراني: بكسر العين لغة اليهود (الكرماني ٣٨/١) والسرياني ـ بضم السين (تحفة الأحوذي ٤١٢/٧) .

[٢] شرح مسلم (٢٠٣/٢) .

[٣] الكرماني (١/ ٣٨) .

قلت: هذا هو القول الأول، وهو أن الإنجيل ليس عبرانياً، ومن العلماء من جزم بأنه سرياني[١]، وآخرون جعلوه احتمالاً .

قال العيني[٢]: قلت لا نسلم أن الإنجيل كان عبرانياً ولا يفهم من الحديث ذلك والذي يفهم من الحديث أنه كان يعلم الكتابة العبرانية ويكتب من الإنجيل بالعبرانية ولا يلزم من ذلك أن يكون الإنجيل عبرانياً، لأنه يجوز أن يكون سريانياً وكان ورقة ينقل منه باللغة العبرانية، وهذا يدل على علمه بالألسن الثلاثة وتمكنه فيها حيث ينقل السريانية إلى العبرانية . اهـ .

وأما القول الثاني: فهو أن الإنجيل عبراني؛ قال التيمي الأصبهاني: الكلام العبراني هو الذي أنزل الله به جميع الكتب كالتوراة والإنجيل ونحوهما [٣].

وقال الداودي يكتب من الإنجيل الذي هو بالعبرانية بهذا الكتاب العربي فنسبه إلى العبرانية إذ بها كان يتكلم عيسى عليه السلام[٤].

وأما ابن حزم فإنه ينقل الاتفاق على أنه منقول من العبرانية إلى السريانية[٥].

القول الثالث: أن الإنجيل وغيره من الكتب نزلت بالعربية ثم نقلت إلى لغة القوم الذين نزلت فيهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري قال: لم ينزل وحي إلا بالعربية ثم يترجم كل نبي لقومه بلسانهم [٦].

هذا وقد ذكر الآلوسي رحمه الله تعالى: أن اللغات التي كتب بها الإنجيل عدة لغات بناء على أن الإنجيل الموجود الآن ليس هو كلام الله الذي أنزله على عيسى عليه السلام وإنما كتبه عنه أصحاب الأناجيل فنسب كل إنجيل لكاتبه .

---

[١] وقد تقدم ذلك من خلال النقل في مسألة الكلام، وانظر: زاد المسير (١٧٧/٤)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (٤٦٥/١) وقلائد المرجان للكرمي (٢٣٤)، وتحفة الأحوذي (٤١٢/٧) .

[٢] عمدة القاري (٥٤/١) .

[٣] نقله عنه الكرماني (٣٧/١) .

[٤] نقله عنه العيني في عمدة القاري (٥٤/١) .

[٥] انظر الفصل في الملل والنحل (٤٩/١) .

[٦] الدر المنثور (٥/٥) وانظر تفسير ابن كثير (الشعراء آية ١٩٥) .

الأول: إنجيل متى وهو من الاثني عشر الحواريين وإنجيله باللغة السريانية كتبه بأرض فلسطين بعد رفع المسيح إلى السماء بثماني سنين .

والثاني: إنجيل مرقس وهو من السبعين وكتب إنجيله باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد رفع المسيح باثنتي عشرة سنة .

والثالث: إنجيل لوقا وهو من السبعين أيضاً كتب إنجيله باللغة اليونانية بمدينة الإسكندرية بعد ذلك .

والرابع: إنجيل يوحنا وهو حبيب المسيح كتب إنجيله بمدينة إقسس من بلاد رومية بعد رفع المسيح بثلاثين سنة[1].

قلت: هذا الخلاف الواقع في اللسان الذي نزل به الإنجيل، ودخول الترجمات عليه، وتدوينه بعد رفع عيسى عليه السلام ليدل على أنه لم يبقَ محفوظاً وإنما نقص منه وزيد فيه، وغيّر وبدل . ولم يبقَ محفوظاً من الكتب التي أنزلها الله تعالى ـ كما أنزلها الله ـ إلا القرآن الكريم العظيم، فالحمد لله على نعمة القرآن والإسلام والإيمان .

المبحث الخامس: الإيمان بالملائكة:

الأصل أن يقدم هذا المبحث نظراً لما ورد في حديث أركان الإيمان، ولكن بما أن هذا المبحث له علاقة بالفلاسفة، فاخترت أن يؤخر، لأن معرفة المراد بالملائكة عند الفلاسفة متوقف على معرفة النبوة عندهم، فإذا اتضح المراد بالنبوة عندهم اتضح المراد بالملائكة .

المسألة الأولى: الإيمان بالملائكة ركن من أكان الإيمان، ويشمل الإيمان بهذا الركن أمرين:

الأول: الإيمان المجمل بالملائكة، وأنهم خلق خلقهم الله واصطفاهم لعبادته .

الثاني: الإيمان المفصل بكل ما جاء في الكتاب وصح الخبر به عن الملائكة، من أسمائهم وأوصافهم، وأعمالهم .

وقوله في الحديث : ((فجاءه الملك وهو في غار حِراء)) وقوله ((فغطني))[2] الأولى ثم الثانية ثم الثالثة دليل على أن الملك خلقٌ مستقل بذاته، وأنه يتشكل بما أذن الله له، وليس هو مجرد تخيل من النبي ﷺ .

---

[1] انظر روح المعاني (٣/٢٠٦) .

[2] (فغطني) ضمني وعصرني حتى حبس نفسي ومثله (غتني) .

وأما المراد بالملائكة عند الفلاسفة، فهو ما تقدم من أن النبي له من القوة التخييلية بحيث يتخيل القوى العقلية بأشكال محسوسة، فالملائكة عبارة عن أشكال نورانية يراها ويسمعها وذلك في نفسه[١].

قال ابن تيمية عن هذا الأمر عند الفلاسفة: ومن كان متميزاً في قوته العلمية بحيث يستغني عن التعليم، وشُكل في نفسه خطاب يسمعه كما يسمع النائم،وشخص يخاطبه كما يخاطب النائم، وفي العملية بحيث يؤثر في العنصريات تأثيراً غريباً، كان نبياً عندهم، وهم لا يثبتون ملكاً مفضلاً يأتي بالوحي من الله تعالى، ولا ملائكة، بل ولا جناً يخرق الله بهم العادات للأنبياء إلا قوى النفس .

وقول هؤلاء وإن كان شراً من أقوال كفار اليهود والنصارى، وهو أبعد الأقوال عما جاءت به الرسل، فقد وقع فيه كثير من المتأخرين الذين لم يشرق عليهم نور النبوة من المدعين للنظر العقلي والكشف الخيالي الصوفي، وإن كان غاية هؤلاء الأقيسة الفاسدة والشك، وغاية هؤلاء الخيالات الفاسدة والشطح [٢].

وبذلك ينكرون جبرائيل عليه السلام ملك الوحي، ويسمونه بالعقل الفعّال[٣] ـ كما تقدم ذلك في الوحي .

وأما معتقد أهل السنة والجماعة وجمهور المسلمين أن الملائكة أجسام مخلوقة منفصلة مستقلة تذهب وتجيء وتصعد وتنزل، وتصلي وتسجد وتركع، أعطاها الله من الخواص أموراً كثيرةً لا يستطيع البشر معرفتها [٤].

المسألة الثانية: جبريل ملك الوحي:

من المعروف والمشهور أن جبريل عليه السلام ملك الوحي، وهذا أمر متفق عليه، وقد ورد في الحديث بوصف الناموس، والناموس هو صاحب سرّ الخير والمراد به هاهنا جبريل[٥].

---

[١] انظر: الصفدية لابن تيمية (٦/١) وشرح الأصبهانية له (١٦١) وشرح الطحاوية (٢٩٨) .

[٢] منهاج السنة النبوية (٤١٥ ـ ٤١٦) .

[٣] انظر الصفدية (٢٠١/١ـ ٢٠٢) .

[٤] انظر موسعاً صفات الملائكة ووظائفهم والاستدلال لوجودهم: شرح الطحاوية (٢٩٧، وما بعدها و ٣٨٨ وما بعدها) .

[٥] انظر شرح النووي على مسلم (٢٠٣/٢) .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزل جبريل عليه السلام على كل نبي فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكريا عليهم السلام فأما غيرهم فكان وحياً إلهاماً في المنام[١].

قال الإمام أحمد ابن تيمية في قوله[٢]: ﴿ نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾[النحل:١٠٢] بيان لنزول جبريل به من الله فإن روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله: ﴿ من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله﴾[البقرة٩٧] وهو الروح الأمين كما في قوله: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ۞ نزل به الروح الأمين ۞على قلبك لتكون من المنذرين ۞ بلسان عربي مبين﴾[الشعراء: ١٩٢ـ١٩٥] وفي قوله: ﴿الأمين﴾ دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص منه، فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة كما قال في صفته في الآية الأخرى ﴿ إنه لقول رسول كريم ۞ ذي قوة عند ذي العرش مكين ۞ مطاع ثم أمين﴾ [التكوير:١٩ ـ ٢١] .

هذا وقد ورد في الآثار أن إسرافيل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ بعد أن نزل عليه جبريل أول الأمر .

نقل الحافظ ابن حجر[٣]عن تاريخ الإمام أحمد أثراً من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة .

وأخرجه ابن أبي خيثمة من وجه آخر مختصراً عن داود بلفظ: ((بعث لأربعين ووكل به إسرافيل ثلاث سنين ثم وكل به جبريل))... وقد حكى ابن التين هذه القصة لكن وقع عنده ميكائيل بدل إسرافيل وأنكر الواقدي هذه الرواية المرسلة، وقال: لم يقرن به من الملائكة إلا جبريل انتهى . ولا يخفى ما فيه، فإن المثبت مقدم على النافي إلا إن صحب النافي دليل نفيه فيقدم والله أعلم . انتهى قول الحافظ .

---

[١] تفسير القرطبي (٤٨/٦) .

[٢] مجموع الفتاوى (١١٨/١٢) .

[٣] فتح الباري (١/ ٣٧) .

المبحث السادس: فضائل ورقة وخديجة رضي الله عنهما .

المسألة الأولى: ورقة بن نوفل وفضائله .

أ) اسمه ونسبه: هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي، ابن عم خديجة زوج النبي ﷺ [١].

ب) إسلامه: قال ابن منده: واختلف في إسلامه[٢]، وقال ابن عساكر: ولا أعرف أحداً قال: إنه أسلم[٣].

قال العيني[٤]وظاهر هذا الحديث، وهو قوله فيه: يا ليتني كنت فيها جذعاً وما ذكر بعده من قوله يدل على إسلامه، وذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ لما أخبره قال له ورقة بن نوفل : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة .

وقال الحافظ ابن حجر[٥] بعد ذكر حديث الباب: فهذا ظاهر أنه أقرّ بنبوته، ولكنه مات قبل أن يدعو رسول الله ﷺ الناس إلى الإسلام، فيكون مثل بحيرا، وفي إثبات الصحبة له نظر .

قلت: إن الحافظ رحمه الله يفرق بين أمرين، وهما: الحكم بإسلامه أو إيمانه، والحكم بصحبته، فكونه أقر بنبوته قبل أن يدعو الناس إليها، لا يعني أن له صحبةً، ولذلك قال، وفي إثبات الصحبة له نظر .

ويحمل قول ابن منده: اختلف في إسلامه، وكذا قول ابن عساكر لا أعلم أحداً قال إنه أسلم، لأن النبي ﷺ لم يكن دعا أحداً إلى الإسلام، لأنه حينئذ عرف أنه نبيٌّ، ولم ينشب ورقة أن توفي، وذلك بعد أن صدقه، وليس مقصود هؤلاء أنه لم يصدقه .

قال الكرماني: فإن قلت ما قولك في ورقة أيحكم بإيمانه ؟ قلت: لا شك أنه كان مؤمناً بعيسى عليه السلام، وأما الإيمان بنبينا عليه الصلاة والسلام فلم يعلم أن دين عيسى قد نسخ عند وفاته أم لا؟ ولئن ثبت أنه كان منسوخاً في ذلك الوقت فالأصح أن الإيمان التصديق[٦]وهو قد صدقه من غير أن يذكر ما ينافيه . اهـ .

---

[١] الإصابة (٣٠٤/١٠) .

[٢] أسد الغابة (٤٤٧/٥) .

[٣] الإصابة لابن حجر (٣٠٤/١٠) .

[٤] عمدة القاري (٦٣/١) .

[٥] الإصابة (٣٠٤/١٠) .

[٦] قوله: "فالأصح أن الإيمان : التصديق"، غير صحيح فالصواب أن التصديق جزء من الإيمان، نعم الإيمان هو التصديق في ذلك الوقت فقط لأنه لم يكن هناك أعمال وشرائع .

قلت: ولو لم يعلم أنه منسوخ، لأنه لم يكن مكلفاً بذلك أول الأمر، فإن النبي ﷺ كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء[١]، فكيف يكلف ورقة بأمر لم يكلف به النبي ﷺ، بادئ الأمر، وورقة توفي في فترة الوحي، فلم يؤمر بشيء، ولم يكن ثمة أحكام وشرائع، وبقي ورقة على تصديقه، فصدّقَهُ وتمنى أن يكون مؤازراً وناصراً للنبي ﷺ .

قلت: مما يؤيد أنه أسلم، ما جاء في زيادات المغازي من رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق، قال يونس بن بكير عن يونس بن عمرو وهو ابن أبي إسحاق السبيعي عن أبيه عن جده عن أبي ميسرة واسمه عمرو بن شرحبيل وهو من كبار التابعين أن رسول الله ﷺ قال لخديجة .... فقال له ورقة أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى وأنك نبي مرسل وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا وإن يدركني ذلك لأجاهدنّ معك فلما توفي قال رسول الله ﷺ: ((لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني)) . وقد أخرجه البيهقي في الدلائل من هذا الوجه وقال هذا منقطع[٢].

قلت: ولعل مأخذ الذين قالوا لم يسلم ما أخرجه محمد بن عائذ في المغازي[٣] من طريق عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة ابتداء الوحي وفيها قصة خديجة مع ورقة بنحو حديث عائشة وفي آخرها لئن كان هو ثم أظهر دعاءه وأنا حي لأبلين الله من نفسي في طاعة رسوله، وحسن مؤازرته، فمات ورقة على نصرانيته .

قال الحافظ: كذا قال، لكن عثمان ضعيف .

قلت: وتأويل هذا ظاهر وهو أنه لم يظهر أمر النبي ﷺ ولم يدعُ الناس إلى الإيمان . وهذا المذكور في الحديث ما هو إلا تعبير من الراوي .

جـ) صحبته: وبناء على ما تقدم من أنه إن جزم له بأنه تبع النبي ﷺ بعد النبوة فهو صحابي، وإن أقر بها قبل الدعوة فلا يكون كذلك .

قلت: أورد الحافظ ابن حجر رحمه الله أثراً مرسلاً أخرجه الزبير بن بكار، أن ورقة كان يمر على بلال ويصبره، وهذا يدل على أن ورقة عاش إلى أن دعا النبي ﷺ إلى الإسلام حتى أسلم بلال، قال الحافظ عن هذا الأثر: مرسل جيد[٤].

---

[١] البخاري (٣٥٥٨) في كتاب المناقب (باب صفة النبي ﷺ) ومسلم (٢٣٣٦) في كتاب الفضائل، (باب في سدل النبي ﷺ شعره وفرقه) .

[٢] الإصابة (١٠/٣٠٤ـ٣٠٥) .

[٣] الإصابة لابن حجر (١٠/٣٠٥ ـ ٣٠٦) .

[٤] الإصابة (١٠/٣٠٥) .

فممن ذكره في الصحابة الطبري، وابن منده، وأبو نعيم، والبغوي، وابن قانع، وابن السكن، وابن الأثير وغيرهم .

وإذا اعتبرناه من الصحابة فإنه يأخذ الرقم الأول في الإيمان، ولذلك عده بعض العلماء أو ل من آمن .

قال الزين العراقي: ينبغي أن يقال إنه أول من آمن من الرجال لأن الوحي نزل في حياته فآمن به وصدقه وذكره ابن منده في الصحابة ...[١].

وقال حافظ الحكمي في المعارج: وكفل النبي ﷺ علياً ﷺ وهو صغير فلما بعث آمن به وهو ابن ثمان سنين وهو أول من آمن من الصبيان كما أن أبا بكر أول من آمن به من الرجال وخديجة رضي الله عنها أول من آمن به من النساء وورقة بن نوفل ﷺ أول من آمن من الشيوخ وزيد بن حارثة ﷺ أول من آمن به من الموالي وبلال ﷺ أول من آمن به من الأرقاء ﷺ ورضي عنهم أجمعين[٢].

د) فضائله: قال الزبير كان ورقة قد كره عبادة الأوثان وطلب الدين في الآفاق وقرأ الكتب[٣].

وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى ولم يبدل ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبشارة به إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل[٤].

وقد وردت عدة فضائل لورقة، أقتصر فيها على أمثلها:

١) عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ((لا تسبوا ورقة بن نوفل فإني قد رأيت له جنة أو جنتين))[٥].

٢) وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل فقال: ((يبعث يوم القيامة أمة وحده)) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح[٦].

٣) روى الترمذي من حديث عثمان بن عبد الرحمن عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: سئل رسول الله ﷺ عن ورقة فقالت له خديجة: إنه كان صدقك ولكنه مات قبل أن تظهر . فقال النبي ﷺ: ((**رأيته في المنام وعليه ثياب بيض ولو كان**

---

[١] التقييد والإيضاح (٣١٢) وفيض القدير (٥١٨/٣) .

[٢] معارج القبول: (١١٧١/٣-١١٧٢) .

[٣] الإصابة (٣٠٦/١٠) .

[٤] فتح الباري (٣٥/١) .

[٥] رواه الحاكم (٦٦٦/٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٢٠) وفي صحيح السيرة (٩٤) وهذا إسناد جيد وروي مرسلاً وهو أشبه .

[٦] المعجم الكبير (٢٤ / ٨٢) ومجمع الزوائد (٦٩٢/٩) .

من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك)) ثم قال: هذا حديث غريب، وعثمان بن عبد الرحمن ليس عند أهل الحديث بالقوي[١].

وأخرجه أحمد من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن خديجة رضي الله عنها سألت النبي ﷺ عن ورقة بن نوفل فقال: ((**قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض**))[٢].

٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سئل النبي ﷺ عن عمه أبي طالب: هل تنفعه نبوتك ؟ قال: ((نعم أخرجته من غمرات جهنم إلى ضحضاح منها)) . وسئل عن خديجة رضي الله عنها لأنها ماتت قبل الفرائض وأحكام القرآن فقال: ((أبصرتها على نهر من أنهار الجنة في بيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب)) وسئل عن ورقة بن نوفل فقال: ((أبصرته في بطنان الجنة عليه سندس)) . وسئل عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال: ((يبعث يوم القيامة أمة وحده بيني وبين عيسى عليه السلام))[٣].

المسألة الثانية: فضيلة خديجة رضي الله عنها.

تكاثرت فضائل خديجة رضي الله عنها، وهي المبشرة بالجنة ببيت لا صخب فيه ولا نصب، وهي بالاتفاق أول من آمن من النساء[٤].

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: ((**إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد**))[٥].

وفي رواية عنها رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها، قالت: وتزوجني بعدها بثلاث سنين، وأمره ربه عز وجل، أو جبريل عليه السلام أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب[٦]. وفي لفظ للحاكم: ما حسدت..[٧].

---

[١] سنن الترمذي رقم (٢٢٨٨) وضعفه الألباني .

[٢] ذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية لابن كثير (٩٣) .

[٣] رواه أبو يعلى وفيه مجالد وهذا مما مدح من حديث مجالد وبقية رجاله رجال الصحيح.مجمع الزوائد (٦٩٢/٩) وذكره الألباني في صحيح السيرة (٩٤) وقال: إسناده حسن ولبعضه شواهد في (الصحيح) . والله أعلم .

[٤] انظر : العيني على البخاري (٦٣/١)

[٥] البخاري (٣٨١٨) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها)، ومسلم (٢٤٣٥) في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها) .

[٦] البخاري (٣٨١٥) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها) .

[٧] المستدرك (٢٠٥/٣) .

عن علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي ﷺ قال: (خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة)[١].

وفي رواية مسلم: قال أبو كريب: وأشار وكيع إلى السماء والأرض .

عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ! هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب [٢].

وقد وردت البشارة لها بهذا البيت من حديث عائشة رضي الله عنها ـ وقد تقدم ـ وأبي هريرة ﷺ ـ وهو هذا ـ وحديث عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما[٣]، وابن أبي أوفى ﷺ[٤]. والإشارة تغني عن سرد الألفاظ .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك، فقال: ((اللهم هالة)) . قالت: فغرت، فقلت ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيراً منها[٥].

هذا وأسأل الله تعالى في نهاية هذا البحث أن أكون قد وفيت ما بحثته حقه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون هذا العمل في ميزان حسناتي يوم القيامة .

ولا بد أن أشير في نهاية هذا البحث أن هناك مباحث أخرى تتعلق بهذا الحديث أعرضت عنها خشية التطويل أكثر، فلعل الله تعالى أن ييسر كتابتها، منها مبحث في التوكل والأخذ بالأسباب وذلك من (التزود)، ومنها: حكم أهل الفترة، ومنها حكم الاختلاء في الكهوف والجبال، ومنها حكم التعبد في غار حراء اليوم، وغيرها ... فأسأل الله تعالى أن يعينني على كتابتها على الوجه الذي يرضيه، إنه سميع مجيب الدعاء. وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم .

---

[١] البخاري (٣٨١٥) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها) . ومسلم (٢٤٣٠) في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها) .

[٢] البخاري (٣٨٢٠) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها) . ومسلم (٢٤٣٢) في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها) .

[٣] رواه أحمد (٢٠٥/١) مؤسسة قرطبة، والحاكم (٢٠٣/٣-٢٠٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

[٤] البخاري (٣٨١٩) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها) . ومسلم (٢٤٣٣) في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها) .

[٥] البخاري (٣٨٢١) في كتاب مناقب الأنصار (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها) . ومسلم (٢٤٣٧) في كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها) .